العذراء

كنتُ أبنة الحادي عشرة سنة يومها كان مشرقا اذ كان يطل علينا نور أبي ، أبي الذي كان يهديني عالماً كل صباح ، لم تغب عن ناظري ابتسامته العريضة بوجهي يوم رحل و أنا أتوسله ألا يرحل ، يومها وعدني برجوعه ، غاب طويلاً ، و طويلاً ، لم تزل تلك الابتسامة المبهجة مرسومة امام عيني إلى يومي هذا ، قالوا من حولي انه قد تبخر نحو السماء العالية و انه بات يسكن مع السحب الماطرة ، فكنتُ انتظرُ نزوله مع كل شتاء ، مع كلِ حبة غيث تُمطر على بيتنا الطيني حتى حسبته قد امتزج مع جدران بيتنا ، كنت ابقى و انظر الى السحب علّي أرى وجهه من بعيد ، كنت اكبر كل يوم و امل نزوله يكبر معي يوما بيومه و يوما ما بعده يوم و هكذا مضت سنواتٌ طوال.

إلى ان اتى يومٌ... ، يومٌ ليته لم يأتي ، فإني من شدة سواده اخجل من الرب ان اسميه يوما ، حينها تم اسري خطفي تعذيبي تعنيفي جسديا و جنسيا مرارا و تكرارا ، مرارا و تكرارا ، و طوال سنة كاملة ، و لكن ممن ؟؟ و ما الدافع ؟ و ما هو السبب الذي قد وضعني هنا بين مخالب هذه المفترسات التي تنهش لحمي و عضمي ؟؟ كنتُ سجينة جدرانٍ اربعة كان هناك فقط شباكٌ يدخل منه ألامل إلى قلبي المعذب ، فقد كان أبي يأتي كل مساء بعد ان تنام جميع العيون و كان يرقصُ حافيا على حافة الشباك و يهمس بحبه لي كل مساء ، يجعلني انام فوق كتفه ، آهٍ كم كان كتفه دافئاً فقد كان يشبه كتف الرحمان ، و ثم استيقظ على إثرِ صوت الوحوش التي كانت تأسرني ، و بقية عائلتي في نفس وضعي و اصعب منه ، أمي ، اختاي ، أخوايَ ، حقا لا ادري من اين تبدأ قصتي فقد مرت عليَّ اكوانٌ من الألم و الفقر و الجوع اللامتناهي ابداً .

بعد عامٍ من المعاناة ، فقدت فيه الأمل في ان اعود انثىً يمشّط الليل شعرها ، تقف امام المرآة صباحا كالسنابل تقف امام الشمس ساجدة تتبارك بالنور ، بعد عام نسيت فيه صوت السنونوات وهي تبني اعشاشها وتتنبأ بالحياة للمنازل المهجورة، اه كم انا بحاجة لتلك الطاقة التي تعزز الخواص المشتركة بين المرأة والعصفور ، ذلك الشعور الخفي بالأمومة والحياة ، كشجرة تنمو قرب النهر، كالمياه تعود عكس جريانها نحو النبع ، بعد عام لا قيمة للوقت فيه ، اقف ثانية على اعتابِ الحياة عين ترنو الى السماء بنوايا القمح ، وعين تهبط الى القاع بخيبة من وجد الحياة بعد ان فقد حقه في الرقص ، أتسائل :

ـ احقاً انا الآن حرة ؟

ـ هل لامرأة مثلي الحق في ان تجدد تلك الخواص المشتركة بين الفراشة والوردة ؟ فالحياة تنتهي بفقدان القدرة على التجدد ، اذاً هل انا قادرة ؟

بروحٍ منهكة ، وقلب خيّبه الرجاء ، واحاسيس يختلط فيها الحزن بالحنين ، وعينان مشتاقتان للكُحل ، صرت اخيرا على بعد دمعتين من الامل ، على بعد خطوتين من الحياة ، على بعد وردتين من الفراشة ، وشجرتين من النهر، ونهرين من الأبد ، لكنَ خوفا انتابني كأنني لم اشعرْ بالخوف قبله ، ورجفة تراقصُ جسدي المنسي كأنني لم ارتجف يوما ، يحدث ان ندفع اعمارنا حتى نحقق غايةً ما ، ويحدث ايضا ان نرتجف خوفا من تحقيق غاياتنا ، انا وبعد عام ادفعُ فيه حياتي للخلاص ، وقفت على عتبة الخلاص واخشاها!! ، وقفت على امتداد ذراعين من حضن امي ، تلك الصبورة التي عانت الآمرّين في الآسر وفي انتظارنا بعد تحريرها.

اه ما اقساه من شعور ، اسمعتم يوما ان امرأة تخشى ان تلتقي امها ؟ تخشى ان تقف لبرهة امامها تتأمل عينيها ..؟

ـ فتسألني امي : حمد لله على سلامتك، هل انتِ بخيرٍ يا عذراء ؟

ـ فأقول متلعثمة كمن يحاول التهرب من الاجابة: فأجابهُ السؤالَ بسؤالٍ ، انا...؟ لمَ تسأليني هكذا سؤال؟ هل الجميع بخير؟

ـ الجميع بخير، ماذا عنكِ يا عذراء ؟

ـ انا .. لماذا لم يأتي البقية ، اين هم الآن؟

ـ الكل ينتظرك ومشتاق إليكِ ، هيا تعالي لأحضنكِ .

ـ تحضنينني؟ انا خائفة يا امّي ، لقد اخبروني بان اهلك سيقتلونك فور وصولك اليهم !

ـ من قال ذلك يا عذراء ؟ لا تقولي مثل هذا الكلام، لا تكوني مجنونة ، الكل ينتظرك بلهفة.

ـ لكن يا امي ..

ـ كفى يا عذراء ، اولئك الوحوش يقولون ذلك لإخافتنا ولمنعنا من الهرب ، انهم يقتلون فينا كل رغبة في الخلاص من ظلمهم ، لا تصدقي أياً من هذا الكلام ، الكل سيتقبلك بحفاوة ، نحن لسنا مثلهم ، و ان كان هناك من تجب معاقبته فهم أولئكَ الذين يدّعون تطبيق شريعة الله ، اي اله هذا الذي يرتكب كل هذه الامور الفظيعة مع امرأة مثلك ؟ هيا قولي ؟ .

ـ لا ادري يا امي، لكني تعِبةٌ وخائفة ، ليس فقط منكم ، انا خائفة من نفسي ايضا.

ـ من نفسك! ماذا تعنين بذلك ؟

ـ اخشى من قدرتي على الاستمرار في التجدد ، في نسيان كل ما جرى ، اخشى انني لم اعد قادرة ، اخاف من رؤية وجهي في المرآة .

ـ فتقول امي مازحة : ومن طلب منك ان تقفي امام المرآة ، قد تكون الصور حلا بديلا ، تضحك قبل ان تضيف : لن اضطر لانتظارك ساعات وانتِ تقفين امام المرآة تمشطين شعرك " المنكوش " .

ـ ضحكتُ كثيرا دون ان اشعر او اعرفَ مصدر هذه القدرة و دون ان اسأل عنها حتى ، حضنت امي بقوة وشوق كأنني لم احتضنها قبل ذلك متجاوزة كل التعب كطائرة ورقية تستعيد توازنها بعد العاصفة.

واخيرا عدت.. كالماء الى النبع ، كالحالم الى حلمه ، كالفراشة الى الربيع ، كامرأة مثلي الى صباها ، الى ذلك الكم الهائل من البراءة ، لا اودّ مفارقة أمي كأنني للتوّ عدت طفلة لم تُفطم ، استقبلني اهلي بشوقٍ من ينتظر طفله الأول ، لكنني رغم ذلك كنت تعبة ، فعائلتي السعيدة قد اقتلعت من سعادتها ، من براءتها ومن بساطتها ، من رائحة التين في باحة منزلنا الذي بناه والدي بيده المباركة ، حاولت ان استعيد عائلتي كلها بعد ان تحررت اختي الصغرى واخي الصغير، لكن غصة في القلب تذكرني بشقيقتي الكبرى واخي الاكبر ، فللآن لم يفك اسرهما ولا نعرف عنهما شيئا ، الا ان وجود والدتي التي تم تحريرها هي الاخرى كان يمدني بالطاقة لان استمر ، لأن استعيد ذاتي المؤجلة ، لقد عدت اخيراً.. لكنها عودة مؤجلة هي الاخرى ،

فتلك الوحوش كانت لا تزال مسيطرة على قرانا النائية ، تلك القرى التي يختنق فيها الهواء بعد ان كان يمدُ الرمادَ بالحياة ، عدت من الأسر الى النزوح ، من قرىً تشع بالحياة الى خيمة تحاصر امانينا من كل اتجاهٍ ، كانت الحياة في المخيم صعبة جدا لكنها لم تخلو من الرغبة في تحدِ ذلك النمط الظالم من الحياة فالمرء يموت فعلا عندما يفقد قدرته على التجدد والمواجهة.

وبعد فترةٍ من عودتي انتشلتُ بقاياي ، تسلحت برغبة الطامح في استعادة كل شيء فقده من غير وجه حق ، رغم خسارتي لأخي الاكبر أبي الاخر ، ذات صباح استيقظت بكامل قواي ، توجهت الى امي بوجه مشرق وقوة اسعدت امي و قلت :

ـ امي اود لو انكِ تثقي فيَّ تماماً.

ـ انا فعلا اثق بك عذراء ، قولي !

ـ لقد قررت ان اخضع لدوراتِ تأهيلٍ نفسية ومن ثم سأُكمِلُ دراستي ، لقد تحدثت مع مدير المدرسة بخصوص ذلك.

ـ حقاً ؟ متى يا عذراء ؟

ـ البارحة ذهبنا انا و نسيم الى المدير ، لقد كان متعاونا معنا ، وقررت فعلا ان اخضع لدورات تأهيلية لأكون مستعدة للدراسة بعدها.

ـ انا اثق بك يا عذراء وادعمك في كل ما ترغبين قالت امي.

وقد فعلت ذلك فعلا ، قبل ان اسجل في مدرسة المخيم الثانوية واسجل امتحانات البكلوريا ، وتعلمت من ذلك درسا مهما : ان المستقبل ملك لأولئك الذين يؤمنون بجمال احلامهم ، وقد ساعدني كل ذلك في اجتياز المرحلة الثانوية والامتحانات ، آهٍ ما اقسى الحياة وما اعذبها ، انا الامرأة التي نست يوما ما جسدها في حضرة الإله وتخلت عن احلامها ، وانا تلك المرأة التي استعادت نفسها وباتت ترى الرب في عيون الاطفال وهم يلعبون في الطريق الى المدرسة.

****

دخلت بعدها الجامعة ، كنت كمن تقف على اعتاب الحياة ثانية بكامل انوثتي و بكل خوفي و رهبتي من الآخرين ، وانا اقول: ها انا في الموصل مرة أخرى ، اعود اليها بنوايا التحدي وانا طالبة في قسم اللغة الانكليزية ، اعود اليها حرّة قوية بعد ان كنت فيها اسيرة وضعيفة ، لم يكن الأمر سهلا عليّ ان امرَ كل صباحٍ بأزقة الموصل ، تلك الازقة التي شهدتْ على اسري مع الاف النسوة الايزيديات ، تلك الازقة التي كرهنا فيها الحياة ، عدت اليها ثانية ، عدت لأبدأ الحياة منها ، لأزرع الورود في صلصال طينها ، لم تكن سوى اربع سنوات من الاصرار والتحدي ، لأتخرج من الجامعة بعدها كأول ناجية ايزيدية تتخرج من الجامعة في العراق و العالم ، كانت اربع سنوات مليئة بالرغبة رغم التعب ، مليئة بالقوة رغم ضعفي الكبير، تعرفت فيها على اصدقاء جدّد ، رقصت مع المسرورين ، وبكيت لحزن الحزانى ، تحديثُ القوي وانكسرت مع الضعيف كياسمينةٍ ، كتلك الياسمينة التي ينبض قلبها للحياة شعرت ان قلبي بدأ ينبض بالحياة التي احلمها ، بالأحلام التي رسمتها لنفسي مذ كنت صغيرةً ، مذ كانت البراءة تشع من عينيّ ، مذ كانت الحياة تقيس لنا الاماني على قياس شنكال ، انا الآن شنكالية حرة.

لم تكن سوى اشهر قليلة بعد تخرجي لأحمل على عاتقي نبوءة انقاذ البراءة من انياب الوحوش ، تلك البراءة التي دُنست بأيدي العبث ، نعم قررت ان انقذ الاطفال الناجين من داعش ، اولئك

الملائكة الصغار الذين اول ما حاول ايدي العبث ان تطالهم ، ان تقتل في اطفالنا طاقة الاستمرار والتجدد ، ان تُعدِم فيهم روح التحدي ، لتندس كل محاولات الحياة ، وتقمع الجمال ، فهم ابناء الدهشة ونوايا القديسين.

حرصي الدائم على هؤلاء الملائكة الصغار واهتمامي بهم اخذ حيزا كبيرا من حياتي الجديدة ، الا انه لم يمنع شعوري بالمسؤولية تجاه عائلتي التي اود بنائها من جديد ، عائلة سعيدة و آمنة ، تبني السنونوات اعشاشها في باحتها دون خوف ، وتزقزق العصافير فوق اشجارها وتهدل الحمائم ، عائلة كتلك التي تركها ابي سعيدة قبل رحيله ، عائلة لا يكسر الفقر عزيمتها ، ولا تدنس البشاعة جمالها ، ولا يثني الظلم من حبها الى السلام ، لقد كبرنا يا ابي في غيابك ، كما علمتنا ان يكون السلام دافعنا في حب الحياة ، ان نُشع ارواحنا بالبراءة ، فالاحتفاظ بالحب هو الرهان الذي تفشل عنده البشاعة ، نحن بنات الدهشة يا ابي ، امرأة مثلي يا ابي كبّرتها بيدك المباركة ، لن تسمح للبشاعة ان تدنس روحها الطاهرة..

اجل يا ابي !

انا تلك الروح التي تحتضن كل غيمة في الشتاء ، وتتنقل بين الفصول شرنقة ، وبين الزهور فراشة ، وبين السنين ابنة واختا وحبيبة ، تلك الروح التي تجدد جميع الخواص المشتركة بين المرأة والفراشة ، تلك الخواص التي تعزز الشعور بالأمومة ، تلك الأمومة المتجددة التي تمنح الحياة كلما توقفت ، تلك الروح التي تبتكرني من الطين ، وتكمل معجزتها كلما رقص الصباح في قلب الأبد..

ابي .. انا بحثت عنك كثيرا عن يدك المباركة ، وملامحك الحقيقية التي تبتكر الحياة من شجرة التين ، وذلك الصوت الشنكالي العذب الذي ينشد(غريبو) في باحة المعبد ، حيث تكون الآلهة اكثر قربا من الارض ، حيث تكون القلوب اكثر قربا من سواد العين للعين ، صوتك يا ابي كان يرتقي بنا نحو الملائكة ، انا الآن اراك يا ابي.. اراك في ملامح الاطفال ، في شجرة التين ، في صوت امي ، أراكَ في وجهِ شخصٍ اصبحتُ محبوبتهُ لِأعيدَ تكوينَ عائلةٍ كألتي تركتها رغم وجودك الدائم ، تشبه عائلتنا في رقتها و قوتها الابدية ، لأقول نعم انا هي العذراء يا ابي .